

"تفاهم نيسان" وخلافات أيار

بقلم غسان سلامه

دخل "تفاهم نيسان"، اسبوعين بعد اقراره، في مأزق حرج، اذ اشتدت الخلافات حول تفسير مضمونه وحول الرئاسة والتأليف والمقر ودور "مجموعة المراقبة" المكلفة مراقبة حسن تنفيذه. وان كان الاجتماع المزمع عقده غدا الجمعة في واشنطن لسفراء الدول الخمس العضو في "المجموعة" مؤشرا الى رغبة عامة بالخروج من المأزق، فإن نجاح ذاك الاجتماع في ظل مواطن التباين في الرأي جميعها ليس مضمونا. شرعي اذن قلقنا، نحن اهل البيت من هذه السحب الداكنة التي عادت تتجمع في سماء الجنوب. وشرعي ايضا اصرارنا على حل سريع لهذه الاختلافات بحيث تبدأ "المجموعة" عملها في اقرب موعد ممكن. ما الذي حصل كي يحل قلق ايار مكان تفاؤل نيسان؟ الجواب في ثلاثة تطورات تلاحقت في الاسبوعين المنصرمين.

الاول، هو ذاك الاقرار بأن قنابل قانا لم تنفجر كلها، وبأن احداها قد فرقعت كالقنابل الموقوتة، بعدما صمتت المدافع. هذه القنبلة هي تقرير القوة الدولية عن ظروف المجزرة. يوم حصولها، مال العالم بأسره لتصديق رواية شمعون بيريس عنها باعتبارها "خطأ غير مقصود"، ولرفض التأكيد اللبناني انها تمت عن سابق قصد وتصميم.

غير ان كل الدلائل التي توافرت منذ يوم الواقعة تشير الى انها كانت في الغالب متعمدة. فقيادة القوة الدولية كانت قد اعلمت اسرائيل سلفا باخطار حصولها، كما ان ردة الفعل الاولية لقيادة الكتيبة الفيدجية كما للقيادة في الناقورة كانت تميل بوضوح لاعتبارها قصفا متعمدا. وتؤكد هذا الشعور في اول اتصال بين الجيش الاسرائيلي والقوة الدولية جرى بعد ربع ساعة فقط على حصول المجزرة، كما تؤكد ان الاحوال الجوية يومها كانت مقبولة وان الانقشاع

"تفاهم نيسان" وخلافات أيار

- تمة المنشور في الصفحة ١ -

كان كافيا، وتؤكد (بفضل فيلم الفيديو النروجي) ان خمس قذائف متتالية وقعت على الموقع وليس قذيفة يتيمة شاردة. ثم ان طائرة استطلاع بدون طيار كانت فوق قانا في ذلك الوقت، وعلمنا ايضا ان طائرة هليكوبتر كانت تعلق فوق البلدة المنكوبة خلال القصف.

ثم جاءت الروايات الاسرائيلية المتناقضة في تواليها لتزيد من صدقية الرواية اللبنانية. حتى الساعة، صدرت عن اسرائيل ست روايات مختلفة تماما، مما يشير الى ارتباك عميق والى تخوف واضح من اشهار الحقيقة. وتراجعت اسرائيل تدريجا عن التفسير القائم على "خطأ في الخرائط" الى اعتراف بحصول خلل في القرار، بمعنى ان احدا ما قد قرر قصف الموقع الدولي رغم ادراكه لهوية الموقع الدولية، ولالتجاء العشرات من المدنيين العزل الى حماه. هل ان قائد كتيبة مدفعية قد استفاد من "لامركزية القرار" داخل الجيش الاسرائيلي لصب غضبه على الناس؟ هل كان قرارا هدفه صرف النظر عن تورط مجموعة كوماندوس في فخ نصبته لها المقاومة؟ هل انهم جنرالات يميلون لتوسيع صورة بيريس بهدف إسقاطها؟ هل هو قرار على مستوى عال هدفه ارهاب اهل الجنوب والمجتمع الدولي معا؟

ايا كان الجواب فان المجزرة الكبرى قد تحولت فضيحة اكبر تلقي بظلالها على تأليف "مجموعة المراقبة" وعلى طرق عملها او تتعدد الاسئلة المؤرقة: هل يستطيع لبنان التفاوضي عن مجزرة هي في الاغلب متعمدة بغية انقاذ "تفاهم نيسان"؟ هل يمكننا احترام تعهد اسرائيل عدم المس بعد اليوم بالمدنيين اذا كانت قد قصفت موقع قانا عن سابق قصد؟ هل تستطيع القوة الدولية في الجنوب ان تعمل كقوة مساندة لـ "مجموعة المراقبة" اذا بقي الامين العام يتأرجح بين واجب الحفاظ على صدقية الامم المتحدة بنشر التقرير كاملا والبناء عليه بمطالبة اعتبار من اقدم على القصف مجرم حرب، وبين ميل مسايرة واشنطن لتأمين إعادة انتخابه؟

التطور الثاني ليس اقل خطورة، وهو تسريب ما سمي "الملحق السري" لـ "تفاهم نيسان". هذا الملحق هو تبادل للرسائل بين واشنطن وتل ابيب، علمت العواصم الثلاث الاخرى بوجوده منذ اليوم الاول وطالبت واشنطن بنسخة عنه، فجاثتها النسخة عن طريق وكالات الانباء وليس بالطرق الدبلوماسية المعهودة! هذا "الملحق" لم يعد سريا ولكنه موجود، وهو يشكل ببساطة خرقا اكيدا للتفاهم اذ يقر لاسرائيل بحق الرد المباشر على اي هجوم على قواتها بدون ان تتمكن "مجموعة المراقبة" اولا من تحديد حقيقة ذلك الهجوم ومواصفاته. بمعنى آخر فان شكوى اي طرف لم يعد لها، وفق "الملحق" اي مفعول تجميدي للرد على الهجوم، مما يتعارض تماما مع روحية التفاهم ان لم يكن مع نصه.

ولا نفشي سرا كبيرا اذا قلنا ان نص هذا "الملحق" هو مجرد استعادة حرفية لفقرة كانت وردت في اول مشروع اسرائيلي - اميركي لوقف اطلاق النار بلغ الى بيروت في اليوم الرابع للعملية ورفضته آنذاك العاصمة اللبنانية بدعم من دمشق، جملة وتفصيلا. فما كان من واشنطن بعد التفاهم الخماسي على "تفاهم نيسان" الا ان حولته "ملحقاً تفسيريّاً" ثنائيا بين اسرائيل والولايات المتحدة.

ان يقبل لبنان اليوم ما رفضه بالامس بينما كانت حمم الغضب تتساقط على رؤوس مواطنيه. لذلك من حقنا هذا "الملحق" غير ملزم، فيرفضه مجددا او يتجاهل وجوده الدخيل باعتبار انه غير معني بمراسلات سرية بين دولتين عرف مضمونها من قراءة الجرائد.

التطور الثالث المؤرّق هو ذلك السجال العلني السوري - الاميركي الذي استفحل في الايام الاخيرة. في ظاهر الخصومة نوع من فقدان الصبر الاميركي الشخصي (كريستوفر) والرسمي (واشنطن) من الموقف السوري المتماسك من واي بلانتايشن الى شرم الشيخ، ومن قانا الى "المهاجرين". فبعد سلسلة زيارات للمنطقة، بدأ كريستوفر يشعر بأن الفشل حليفه في احد الملفات الدبلوماسية القليلة التي بقيت بين يديه (اي الملف السوري - الاسرائيلي) فيما ذهبت قضية البوسنة الى خصمه هولبروك الذي توفّق في التوصل الى حل لها، وذهبت قضية كوريا الى رئيسه السابق جيمي كارتر الذي استطاع ان يضع حلا لها، بينما يعالج مستشار الرئيس كلينتون انطوني ليك معظم قضايا العالم بدون ان يتعاون دوما مع وزير الخارجية المحيط.

لذا يتعرض كريستوفر ليس فقط لاتهام واسع بالفشل بل ايضا لاتهام بانه يساير دمشق اكثر من اللزوم، وهذا كلام اميركي طبيعي في المراحل الانتخابية الحاسمة حيث تتلاقح مواقع البيت الابيض مع مواقف اللوبي الاسرائيلي في اميركا. ولم يجد كريستوفر وسيلة للرد على هذه الانتقادات الا بتسجيل تراجعه عن "وسطيته" السابقة، وبانخراطه في جو اسرائيلي - اميركي اكثر بعدا واقسى كلاما عن دمشق. ويزيد من احباط كريستوفر اضطراره لقبول الطرف الفرنسي في اللعبة المشرقية، و"حادث" عدم استقباله في دمشق في احد ايام الازمة العصبية.

يلقي هذا التباعد السوري - الاميركي بثقله على "تفاهم نيسان" فيجعل (مثله مثل تقرير القوة الدولية عن مجزرة قانا، ونشر "الملحق السري" للتفاهم) من تأليف "مجموعة المراقبة" ومن الاسراع في بدء عملها امرا شاقاً امام المدعويين الى اجتماع واشنطن غدا. فكل عنصر من عناصر عمل تلك المجموعة يزيد من الشكوك ومن المخاوف، مما يفسر تأخرها سورياً واضحا في ارسال مندوب الى اجتماع الغد بل في قبول مبدأ الاجتماع.

فكان التثام "المجموعة" موضوع جدل، اذ ان لبنان يرفض ان يتم على ارضه وفي المجموعة مندوب اسرائيلي، كما ترفض فرنسا ان يكون مقرها واشنطن لانها تسعى الى الندية التامة مع اميركا في عمل "المجموعة". وقد يكون الحل في اختيار جنيف اوعلى الارجح قبرص، لكن الامر ليس محسوما بعد.

ورئاسة "المجموعة" ايضا موضع تجاذب. فالاميركيون يقترحون انفسهم لترؤسها، ويعرضون على فرنسا نيابة الرئاسة، ولكن الالاح الفرنسي على الندية دفع الفرنسيين لاقتراح التناوب في رئاسة المجموعة بين الدول الخمس الاعضاء بوتيرة سوية.

واختيار مستوى المندوبين للمجموعة، موضع خلاف عميق، فاسرائيل تريد ان تكسب عن طريق المجموعة ما فشلت فيه حتى اليوم، اي استمرار التفاوض مع سوريا على مستوى اعلى من السابق، بحيث تتألف اللجنة من وفود يترأسها وزير الخارجية في كل بلد. في المقابل تصر سوريا على الا يكون لهذه المجموعة اي طابع سياسي اوديبلوماسي، بحيث تبقى مجرد آلية أمنية وعسكرية. وتبدو باريس اقرب الى موقف الولايات المتحدة واسرائيل من خلال اصرارها على تمثيل سياسي، او على الاقل ديبلوماسي وليس فقط عسكريا داخل هذه المجموعة.

والدور المساند الذي قد تلعبه القوة الدولية لمجموعة المراقبة اصبح ايضا موضع خلاف لا بسبب عداة اسرائيل العتيق للمنظمة الدولية ولقوتها العاملة في جنوبنا فحسب، بل ايضا بسبب السجال المستجد حول تقرير المنظمة الدولية عن مجزرة قانا.

وما هذه الخلافات، في النهاية، الا صورة مقلقة لمقولة قديمة مفادها ان الدبلوماسية ليست الا "استمرارا للحرب بوسائل اخرى"، مما يعني عمليا ان العملية التي اطلقتها اسرائيل ضد لبنان قبل شهر لم تنته بعد بل هي مستمرة بطرق اخرى بعدما صمت المدافع.

ويقظة الحكم في لبنان ضرورية اليوم اكثر من اي وقت مضى، اذ على لبنان ان يدافع بحزم عن مكاسب "تفاهم نيسان" الحقيقية مهما ادعى المشككون من دون ان يسمح لها بالتآكل والتفتت، وعليه ان يوائم ببراعة بين علاقة "مميزة" بسوريا وبين صداقاته المتجددة التي اثبتت اخيرا فاعليتها وعليه ان يبقى صادقا مع دمشق من دون ان يستنفر مجددا الآلة الجهنمية العسكرية الاسرائيلية ضده، وعليه ان ينمي علاقة مثمرة بباريس من دون ان ينزلق لمعاداة واشنطن، وعليه اخيرا ان يصر على جلاء فضيحة قانا من دون ان يمس بوجود القوة الدولية في الجنوب او ان يقبل منها بديلا او ان يسهم بدون انتباه في مسعى اسرائيل لتهميشها.

مهام شاقة ولا شك لكنها ليست مستحيلة التحقيق في وطن استعاد وحدته الوطنية، ان عرف الحكم فيه الحفاظ على تماسكه في وجه التحديات، وان اقر بأن نجاحه في تجاوز الصعاب مشروط برهافة احساسه بمشاعر اللبنانيين وحسن قراءته لسياسات الدول.

غسان سلامة